بابا طاهر الهمدانى

(ت ٤١٠هـ = ١٠١٩م)

هو من الشعراء المتصوفة فى القرن الخامس الهجرى، أصله من همدان، وليس لدينا معلومات كثيرة عن حياته. ومن مؤلفاته مجموعة من الكلمات القصار باللغة العربية، وتشتمل على معتقدات وآراء الصوفية. وله أيضًا مجموعة من الأبيات الصوفية التى أنشدها باللهجة اللورية، وهى من أنواع "الفهلويات". وقد تحدث فيها عن وحدة عالم الوجود، والوحدة، والفقر، والاضطراب، والشوق المعنوى.

وتتميز هذه الرباعيات بالسهولة، والبساطة وعدم التكلف. ونظرًا لشيوع رباعياته بين الناس، فقد حدث بها كثير من التغيير والتحريف، حتى بعدت فى كثير من الأحيان عن شكلها الأصلى، واقتربت ألفاظها من الفارسية الدرية.

وتتفق رباعيات بابا طاهر مع كثير من الرباعيات التى كتبت فى لهجة خاصة، من حيث كونها لا تجرى على أوزان الرباعى المعروفة، بل تجرى على وزن الهزج المسدس المحذوف، فتتكرر "مفاعيلن" ست مرات فى البيت الواحد، ولكن التفعيلة الثالثة، والسادسة منها تقتضب إلى "مفاعل" أو "فعولن".

وقد عثر الأستاذ مجتبى مينوى على أبيات لبابا طاهر فى إحدى مكتبات إسطنبول، ما زالت تحافظ على اللهجة الأصلية التى نظمت

بها وهى اللهجة اللورية، وعندما نقارن هذه الرباعيات بغيرها من الرباعيات الشائعة والمنسوبة إلى بابا طاهر نرى فروقًا كثيرة. والمعروف أن عددًا كبيرا من الرباعيات نُسب إلى بابا طاهر، وهذا هو نفسه ما حدث بالنسبة للشاعر الخيام ورباعياته التى تتفاوت أعدادها من نسخة إلى أخرى. ويحاول أهل كل لهجة من اللهجات الإيرانية نسبة هذه الرباعيات للهجتهم، فأهل لورستان يدعون أن بابا طاهر لورى وأن رباعياته باللهجة اللورية، وكذلك الأكراد يعتبرونها منظومة بإحدى اللهجات الكردية، ويدعى أهل ملاير وتويسركان أن رباعياته تتفق مع لهجاتهم، وذلك لقرب همدان من مناطقهم وخاصة تويسركان وقراها التى تقع بالقرب من سفح جبل الوند الذى أشار إليه بابا طاهر فى رباعياته. ويردد مثل هذه الأقوال أيضًا أهل جنوب إيران وأهل طبرستان وخراسان ومناطق أخرى. ويمكن القول بأنهم جميعًا على حق، ذلك أن رباعيات الهمدانى تقرأ فى كل منطقة بلهجتها الخاصة نظرًا لعدم ضبط الكلمات، وعدم معرفة الطريقة الصحيحة لنطق ألفاظ هذه الرباعيات، كما أنه حدث بها كثير من التغيير والتبديل مما جعلها تتناسب مع عدة لهجات فارسية.

ويمكننا القول بأن الهمدانى، ذلك العاشق المحترق، قد مثل التصوف والعشق خير تمثيل، وذلك فى رباعياته التى تضمنت أرق التعبيرات وأجمل المعانى ولا غرَابة فى هذا؛ فالتصوف كما يقولون مذهب القلب والشعر لسانه. وقد انطوت أشعاره على كثير من الأفكار الصوفية من خوف ورجاء، وتوبة وفناء، ويختلط ذلك كله برموز الصوفية وتعبيراتهم.

ما أسعد هؤلاء الذين يرونك دائمًا .
ويتحدثون معك ويجلسون إليك .
إذا لم أتمكن من الوصول إليك .
فإننى سأجلس مع من يرونك .

* * *

يارب .. لا نبتت زهرة فى بستان بدونك .
وإذا نبتت .. فلا شم عبيرها أحد .
ولو أصاب قلبى شئ من السرور وأنت بعيد .
فما زالت عنه مسحة الحزن مطلقًا .

* * *

ما أسعد من كان الله مصاحبًا لهم .
وعملهم الدائم هو قراءة سورتى "الحمد" و "قل هو الله"(٣)
وما أسعد من يصلون دائمًا .
فجزاؤهم الجنة الخالدة .

* * *

---

(٣) الحمد: سورة الفاتحة. قل هو الله: سورة الإخلاص.

إن جملة : "قالوا بلى"[٤] تصيبنى بالفزع .
لأننى أحمل من الذنوب أكثر مما تحمله الأشجار من أوراق .
وعندما يحين اليوم الذى يقرأ فيه كل كتابه .
فإننى سأحمل كتابًا ينوء به عنقى .

* * *

إلهى من أنا؟ ومع من أكون؟
وإلى متى تغرورق عيناى بدموع من الدم؟
عندما يطردنى الآخرون ، إليك أتوجه .
وإذا طردتنى فإلى من أتجه؟

* * *

إن من يقاسى الحزن يعرف جيدًا آهاته ،
كما تميز البوتقة الذهب الخالص ،
تعالوا أيها العشاق المعذبون لنبكى معًا :
فالعاشق المعذب يعرف حال قرينه .

* * *

(٤) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـذَا غَافِلِينَ﴾ (الأعراف/١٧١).

كل حديقة تطل فروع أشجارها خارج أسوارها ،
فإن البستاني يتحمل العناء في العناية بها دائمًا ،
وعندئذ يجب اقتلاع الأشجار من جذورها ،
حتى ولو كانت ثمارها من الياقوتِ والجواهر .

* * *

أيها القلب .. إن طريقك مليء بالأشواك والحسك ،
ومعبرك مرتفع فوق أوج الفلك ،
فإذا استطعت أن تتخلص من جلدك (وأنت تسير على هذه الأشواك) ،
فاتركه حتى تذهب بحمل خفيف .

* * *

مازلت بدون ملجأ ومأوى ، فممن أطلب الملجأ والمأوى؟
ومع أنني هائم ولا ملجأ لي ، فإلى أين أذهب؟
وإذا أوصد كل الناس الأبواب في وجهي ، فإنني أطرق بابك ،
فإذا أوصدت بابك في وجهي ، فإلى من ألجأ؟

* * *

إذا قتلتني بؤسًا فممن تخاف؟
ولو طردتني بذلة فممَن تخاف؟
فأنا ضعيف بنصف قلب ولا أخشى أحد
وأنت قوي وقادر فممن تخاف؟

* * *

لو أننا فى أشد حالات السكر والغفلة فإننا نكون معك ومن عبادك ،
وإذا كنا فى حالة عجز وقصور ، فإننا نتوجه إليك ،
وسواء كنا من المجوس أو من النصارى أو من المسلمين ،
وعلى أى مذهب نكون فإننا نتوجه إليك ونعبدك .

* * *

أقبلوا أيها العشاق المعذبون لنجتمع معًا ،
نتحدث معًا ونظهر همنا وغمنا ،
ولنحضر ميزانًا لنزن همومنا ،
فأكثرنا غمًّا سيكون أرجحنا كفة .

* * *

هيا أقبلوا أيها العشاق المعذبون حتى ننوح معًا ،
ننوح من هجر تلك الوردة الجميلة (المعشوق) ،
ونجلس مع البلبل الولهان فى الروضة والخميلة ،
وإذا امتنع البلبل عن النواح ، قمنا نحن به .

* * *

كنت كصقر جلد ، فذهبت مرة للصيد ،
فأطلق صياد أحور (المعشوق) سهمًا على جناحى ،
احترس أيها الغافل ولا تتجول فى الجبال ،
فكل من يتجول غافلاً تصيبه السهام على حين غرة .

* * *

حدثني جوادى بالأمس قائلاً : لا شك أن
اصطبلك ركن من أركان السماء ،
فليس به ماء ولا حشائش ولا تبن ولا شعير ،
فهو ليس مكان دوابٍ ، وإنما هو مكان ملائكة .

* * *

بسبب الفتنة التى تأتينى من السماء دائمًا ،
تمتلئ عيناى الجريحتان بالملح على الدوام (من شدة البكاء) ،
ويتصاعد فى كل لحظة دخان آهاتى إلى عنان السموات ،
ويئن جسدى ، وتصل دموعى إلى الأسماك .

* * *

إلهى .. بسبب كثرة آلامى من هذا القلب ،
خلصنى منه حتى لا أتألم ،
فمن كثرة ما نحت بسببه ،
أصبحت أتألم ليلاً ونهارًا منه .

* * *

إننى أتجول فى الصحراء ليلاً ونهارًا من الحيرة ،
وتنهمر الدموع من عينىَ ليلاً ونهارًا ،
لا يؤلمنى عضو من أعضاء جسدى ،
ولكنى أعلم أننى أئن وأتألم ليلاً ونهارًا (بسبب العشق)

* * *

القلب مبتلى .. القلب مبتلى ،
والذنب من العيون ، لأن القلب يبتلى بسببها ،
فإذا لم تر العيون الوجوه الجميلة ،
فكيف يدرى القلب أين تكون الحسناوات؟

* * *

واغوثاه من سطوة العين والقلب ،
فكل ما تراه العين يذكره القلب ويحفظه ،
سأصنع خنجرًا حده من الفولاذ ،
وأفقأ به عينى حتى يتحرر قلبى .

* * *

إن لى قلبا لا تتحسن حالته أبدًا ،
وأقدم له النصح فلا يستفيد منه ،
وألقى به للرياح فلا تحمله بعيدًا عنى ،
وأرمى به فى النار فلا يحترق ولا يتصاعد دخانه .

* * *

أنا ذلك الرند المسمى "قلندر" ،(٥)
ليس لى منزل ولا متاع ولا مستقر ،
عندما يطلع النهار أحوم حول العالم ،
وحينما يخيم الظلام أتوسد لبنة .

* * *

---

(٥) القلندرية فئة من الصوفية الملامتية لا تهتم بالمظاهر ولا بآراء غيرهم من الناس.

لا توجد فراشة تحوم فى العالم مثلى ،
ولا مجنون يطوف فى الدنيا على شاكلتى ،
فجميع الثعابين والنمل لهم جحور يسكنونها ،
وأنا المسكين ليس لى جحر خرب آوى إليه .

* * *

لا ينبت فى روضة أفكارى سوى الحزن والغم ،
ولا تنمو فى حديقة (حياتى) سوى زهور المأتم ،
ولا تنبت فى صحراء قلبى الجرداء
أعشاب اليأس أيضًا .

* * *

لى قلب رقيق كالزجاج
إذا تأوهت أخاف أن يحرق العالم ،
فلا عجب إن كانت دموعى كالدم ،
فأنا كشجرة جذورها كلها فى الدم .

* * *

ماذا يحدث لو كان ألمى واحدًا؟
وماذا يكون لو كان همى قليلاً؟
فياليت حبيبى أو طبيبى يقترب من وسادتى ،
ماذا يحدث لو حضر أحدهما؟

* * *

أصبح قلبى كالناى نواحًا وأنينًا ،
ويرافقنى الألم من هجرك وفراقك دائمًا ،
وهذا يجعلنى أحترق وأذوب حتى قيام الساعة ،
والله وحده يعلم متى تكون تلك الساعة .

* * *

يأتى الربيع وتتفتح الزهور فى كل الحدائق ،
وتغرد آلاف البلابل على كل الأغصان ،
ومع كل ذلك لا أجد مكانًا لقدمى فى المروج ،
فلا كان أحد عاشقًا معذبًا مثلى .

* * *

أنا ذلك البحر الذى صب فى قارورة ،
وأنا تلك النقطة التى وضعت على الحرف ،
ففى كل ألف عام يخرج عظيم .
وأنا ذلك العظيم الذى ظهر فى هذه الألف .

* * *

أنا ذلك الطائر النارى ، إذا رفرفت بجناحى
أحرق العالم فى الحال ،
وإذا رسم المصور صورتى على جدار منزل ،
فإن المنزل يحترق من تأثير هذه الصورة .

* * *

إذا كان معشوقى هو قلبى ، فماذا أسمى محبوبى؟
وإذا كان قلبى هو معشوقى ، فماذا أسمى قلبى؟
لقد اختلط قلبى ومعشوقى .
حتى إننى لم أعد أميز أحدهما عن الآخر .

* * *

إذا كنت أتوق لرؤية وجه الحبيب ،
فلا تمنعنى ، فقد ملك شغاف قلبى .
بالله عليك أيها الجمال لا تتعجل ،
فإننى متخلف عن هذه القافلة .

* * *

إن صورة جمالك لا تغادر قلبى .. أيها الحبيب
وصورة الخط والخال على وجنتك لا تبرح مخيلتى .. أيها الحبيب
سأجعل من أهدابى مانعًا حول عينى ،
حتى لا تفارق صورتك الرقيقة عينى .. أيها الحبيب .

* * *

إن شغلى الشاغل هذه الليلة هو البكاء والنحيب ،
فلا صبر عندى الليلة ولاَ وعى ،
فقد انقضت بالأمس ساعة فى سرور ،
والليلة أقدم كفارة لسعادة الأمس .

* * *

يا من سلبت أكثر من ألف قلب ،
وجعلت الآلاف من القلوب في عذاب وألم ،
لقد أحصيت آلاف الجراح بسببك ،
وما لم يحص كان أكثر من هذا .

* * *

لا تجعل خصلات شعرك الشبيهة بالسنبل مجعدة ،
ولا تجعل عينيك الناعستين من أثر الخمار مغرورقتين بدمع دموى ،
فأنت تريد أن تقطع الحب بيننا ،
لا تتعجل فالزمن كفيل بهذا .

* * *

لا يحترق قلبك لأجلنا يا قاسى القلب ،
ولا عجب أن لا يحترق الحجر الصلد ،
ولكنى سوف أحترق حتى أحرق قلبك ،
لأن العود النضر لا يحترق بمفرده فى النار .

* * *

لى قلب حائر وله من حبك ،
وعندما أغمض عينى تنهمر دموعى المختلطة بالدماء بغزارة ،
فقلب العاشق كالعود النضر ،
يحترق جزء منه ويقطر الجزء الآخر ماء مختلطاً بالدم .

* * *

بدونك لا يسعد قلبى لحظة واحدة ،
وإذا طالعت محياك فارقنى الهم والحزن ،
لو قسمت آلام قلبي على الناس جميعًا ،
فلن يبقى قلب فى العالم بدون ألم .

* * *

لك خصلات مجعدة فوق وجنتيك ،
وجعلت الورد (الوجنة) يدنو من السنبل (خصلة الشعر) ،
وعندما تبعثر أوتار خصلاتك ،
يتعلق بكل شعرة فيها قلب .

* * *

ليكن وجهك الشبيه بالشمس أكثر اشراقًا ،
وقد تحطم قلبى عندما أصابته سهام عشقك .
ألا تعلم لماذا يكون خال خدك أسود اللون؟
ذلك أن كل ما يقترب من شمس وجهك لابد وأن يحترق .

* * *

إن النسيم الذى يهب من بين خصلات شعرك ،
هو عندى أحلى من رائحة السنبل ،
ففى الليل أحتضن طيفك ،
وعند السحر يفوح عبير الورد من فراشى .

* * *

سأشد أوتارا على ربابي من خصلتي شعرك .
ماذا تريد مني بعد أن اضطربت أحوالي؟
أنت يا من لا ترغب في حبي .
لماذا تأتيني في الأحلام منتصف كل ليلة؟

* * *

مع أنك تملك عينين جذابتين مكحلتين ،
ومع أنك تملك قامة هيفاء ساحرة ،
ومع أن لك خصلات شعر مسكيّة تتهدل على جيدك ،
فقل لي لماذا تكون حائرًا مضطربًا؟

* * *

ما أجمل الحب إذا كان متبادلاً ،
لأن الحب من طرف واحد يكون متعبًا للفكر ،
فإذا كان قلب المجنون مضطربًا وعاشقًا ،
فقد كان قلب ليلى أكثر اضطرابًا وعشقًا .

* * *

تعال وأنر لي منزلي بوجهك المضيء ليلة واحدة ،
ولا تتركني في محنة الفراق وَألمه نهارًا ،
إنني أقسم بحاجبيك المقوسين ،
أنك منذ أن فارقتني صار الغم شريكًا لي .

* * *

أيها القلب .. أيها القلب .. هل أنت أسد أم نمر؟
أيها القلب .. أيها القلب .. لماذا أنت فى صراع دائم معى؟
آه .. لو وقعت في يدى ، سأريق دمك ،
لكى أرى ماذا يكون لونه .. أيها القلب .. أيها القلب .

* * *

أيها المحبوب أنت تملك روحى وشغاف قلبى ،
وتملك ما هو ظاهر منى وما هو خفى ،
ولا أدرى ممن يكون هذا الألم ،
ولكنى أعلم أن علاجى عندك .

* * *

إذا أقبلت فسوف أرحب بك بروحى وقلبى ،
وإذا لم تأت فسأذوب بسبب هجرك ،
ضع كل ما عندك من آلام فى قلبى ،
فإما أن أموت منها أو أحترق أو أتحملها .

* * *

عاشت الشقائق أسبوعًا فوق الجبال العالية ،
وعاشت أزهار البنفسج أسبوعًا على حافة الجدول ،
وأنا سأنادى وأعلن من مدينة إلى مدينة قائلاً :
إن وفاء أصحاب الخدود الوردية لم يدم إلا أسبوعًا .

* * *

إن قلبى حزين دائمًا بسبب آلام هجرك ،
اللبنة وسادتى والعراء فراشى ،
وذنبى الوحيد أننى أحببتك ،
ولكن ليس كل من يحبك حاله كحالى .

* * *

أنا شمعة تذرف الدمع النارى من أثر اللهب ،
وليس كل من احترق قلبه يذرف دمعًا كدمعى ،
إننى أحترق كل ليلة ، وأبكى كل نهار ،
فبسببك هكذا صار مسائى وهكذا أصبح نهارى .

* * *

عندما تغيب عنى تنهمر دموعى ،
وحينما تبتعد عنى لا تثمر نخلة آمالى ،
بدونك أبقى منعزلاً فى زاوية الوحدة ليلاً ونهارًا ،
وسأظل هناك حتى ينتهى عمرى .

* * *

أيها القلب .. سألبس لباسًا أزرق اللون لفراقك ،
وسأجر أحزانى ورائى كذيل الثوب ،
وسأظل أتنفس من حبك مثلما يتنفس الفجر ،
إلى أن ينفخ إسرافيل فى الصور .[٦]

* * *

---

(٦) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً﴾ (سورة النبأ/١٨).

إن قلبى ممتلئ بالنار ، وعينى ممتلئة بالدمع ،
وإناء حياتى ممتلئ بدم كبدى ،
ولكنى سأحيا بعد موتى بسبب رائحتك ،
لو مررت على قبرى .

* * *

الموت داء لا علاج له ،
وأوامره تنفذ على السلطان والوزير ،
فالسلطان الذى استولى بالأمس على مدينة كرمان ،
اليوم .. تأكله الديدان فى جوف الأرض .

* * *

إن حظى عاثر ، سيئ ، متقلب دائمًا ،
وحياتى ضائعة مضطربة على الدوام ،
وقد صرت شوكًا وحسكًا على جبل الحب ،
وذلك بسبب قلبى ، فيارب أغرقه فى الدم .

* * *

منذ ذلك اليوم الذى خلقتنا فيه ،
ماذا رأيت منا غير المعصية؟
فيارب .. بحق الأئمة الاثنى عشر ،
اعف عنا وافترض أننا لم نرتكب ذنوبًا .

* * *

لقد كان غم الدنيا من نصيب أرواحنا ،
والراحة من آلامنا صعبة المنال ،
وقد يصل فى النهاية دواء لآلام كل الناس ،
إلا أن دواء قلبى هو الفناء .

* * *

سأذهب وأرحل تاركًا هذا العالم ،
وسأسافر إلى حدود الصين وما وراء الصين ،
وفى أثناء الرحلة سأسأل الحجاج
هل يكون هذا البعد كافيًا أم أبتعد أكثر؟

* * *

أين أنت أيها الحبيب الشاب ذو الوجه النضر؟
أين أنت بعينيك المزججتين بالكحل؟
لقد بلغت روح طاهر الحلقوم ،
فأين أنت ياعزيزى فى لحظة الوداع هذه؟

* * *

يا من لم تقرأ علم السماوات ،
ولم تطأ قدمك عتبة الحانات ،
يا من لا تعرف نفعك من ضرك ،
هيهات أن تصل إلى المصطفين هيهات .(٧)

---

(٧) إشارة إلى الآية الكريمة: ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾ (المؤمنون/٣٦).